التراث اللغوي العربي والدراسات اللغوية الحديثة

محمد ياسر سليمان

ـ قسم علم اللغة جامعة سانت أندروس ـ اسكتلندا

مقدمـة :

ان التراث اللغوي العربي، كما وضعه اللغويون العرب القدامى، بحاجة ماسة الى دراسة جادة، من وجهة النظر اللغوية الحديثة، وذلك من أجل تحديد الأسس التي اعتمد عليها أولئك اللغويون، والتي مازال يعتمد عليها من يحذو حذوهم من اللغويين العرب في عصرنا الحاضر، للوصول الى نتائجهم فيما يتعلق بطبيعة اللغة العربية كنظام لغوي، سواء كانت تلك الأسس فلسفية، باوسع معنى لهذا التعبير، أم انها كانت أسسا لغوية بحتة. ان هذه الدعوة ليست جديدة في الحياة اللغوية والفكرية العربية المعاصرة. لكن ردود الفعل التي افرزتها تلك الدعوة تضاربت وتباينت في كثير من الأحيان فمن رافض المشاركة باي نشاط من هذا النوع، انطلاقا من مبدأ ان ما أتى به اجدادنا القدامى من اللغويين العرب هو كامل وصحيح، لا يقبل النقد في صلبه، ولا يستدعي المراجعة في اصوله، وبين محاولة أخرى لرفض هذا التراث والتخلص منه باعتبار انه قديم عقيم، لا قيمة له ولا فيه. وبين هذين الموقفين المتعارضين، يطالعنا موقف اصحاب الوسط، والذي يدعو القائلون به الى النظر في اصول تراثنا اللغوي، نظرة فاحصة مدققة، تهدف الى بيان نقاط القوة أو الضعف فيه، أو كليهما معا. وهم يستندون في اجراء مثل هذه المحاكمة لتراثنا اللغوى على الدراسات اللغوية الحديثة كما تُجْرى في جامعات الغرب ومؤسساته الأكاديمية الأخرى، باعتبارها في نظرهم تمثل ذروة ما توصل اللغويون المحدثون اليه من استنتاجات تتعلق بطبيعة اللغة الانسانية، ومميزات اللغات الانسانية وخصائصها كل على انفراد. ان الأغلبية العظمى من اصحاب هذا الموقف ودعاته، تتألف من لغويين عرب درسوا النظريات اللغوية الحديثة في جامعات الغرب ومؤسساته العلمية.

ان رفض الجديد لأنه غير قديم، وقبول القديم لأنه تراثي وقديم، وان رفض القديم لأنه غير جديد، وقبول الجديد لأنه جديد غير تراثي كانا، ولازالا، آفة خطيرة من آفات الحياة الفكرية واللغوية العربية المعاصرة. إنّ هذين الموقفين رغم تعارضهما الفكري التام، فانهما يشكلان مظهرين لاتجاه واحد خاطيء، الا وهو اتجاه التعصب في حياتنا الفكرية، سواء كان هذا التعصب لتراثنا الفكري أو لفكر الغرب ونظرياته.

اما مجموعة الوسط، والتي أوّد ان اركز على موقفها من تراثنا اللغوي في هذه المقالة، فان آفتها من نوع لا يختلف كثيرا في صلبه عن آفة أصحاب كل من الموقفين آنفي الذكر. ان آفة اصحاب هذا الموقف ليست هي رفض القديم، فهذا هو الذي يهدفون الى محاكمته، من أجل بيان نقاط القوة أو الضعف فيه، بل انه قبول الحديث واعتباره، الى حد كبير، المعيار الأول والنهائي للوصول الى نتائجهم، دون محاكمة لهذا الحديث بطريقة نقدية فاحصة، ترمي الى بيان نقاط القوة فيه، من أجل عزلها للاستناد عليها كقاعدة محكمة في معالجة تراثنا اللغوي. فنحن نرى ان هذه المجموعة كثيرا ما تميل الى اعتبار كل ما اتفق من تراثنا اللغوي مع آخر الأفكار اللغوية الحديثة، كتلك التي تشتمل عليها الأشكال المختلفة لنظرية تشومسكي *(Chomsky)* مثلا، هي نقاط قوة في هذا التراث، وكل ما خالف هذه الأفكار من تراثنا اللغوي نقاط ضعف فيه. ان هذه المجموعة تغفل بموقفها هذا مُسلمة علمية على غاية من الأهمية الا وهي ان هذه الدراسات، رغم حداثتها، بحاجة الى البحث والنقاش والمحاكمة وهي لذلك لا تصلح كأداة جاهزة وفورية عند محاولتنا تقييم تراثنا اللغوي.

ان ما سبق طرحه حتى الآن، فيما يتعلق بموقف مجموعة الوسط، يشير الى مقولة هامة يمكن تلخيصها بما يلي : ان محاولة محاكمة وتقييم تراثنا اللغوي العربي، من وجهة النظر اللغوية الحديثة، يجب ان ترتكز على اسس سليمة، قائمة على نظرة مُدَقَّقَة لاصول الدراسات اللغوية الحديثة، سواء كانت تلك الأصول فلسفية منطقية، أمْ لغوية بحتة. ان غياب هذه النظرة المنهجية من أيّة محاولة تهدف الى استكناه نقاط القوة أو الضعف، أو كليهما معا في تقييم التراث اللغوي العربي تؤدي، لامحالة، الى دراسات عقيمة لا فائدة علمية منها.

أما الهدف من هذه المقالة فيمكن تلخيصه في نقطتين اثنتين : الأولى تقصد الى اثبات أن كثيرا من النظريات اللغوية الحديثة لا تعطي اصولها الفلسفية العلمية حقها من البحث والتمحيص فتأتي هذه النظريات، رغم شيوعها مهزوزة الأصول. ان هذا، في نظري، يدعو الى الحذر من اعتبار هذه النظريات مسلمات وحقائق لا ريب فيها، عند معالجة تراثنا اللغوي. ونظرا لأنه لا يمكن معالجة كل هذه النظريات، أو حتى واحدة منها، معالجة تامة هنا، فاني سوف اركز على جانب بسيط، لكنه هام، من نظرية تشومسكي *(Chomsky)* كمثال على هذه النقطة. أما سبب تركيزي على نظرية تشومسكي دون غيرها فانه نابع من كون هذه النظرية أكثر النظريات اللغوية شيوعا في الغرب، ونظرا لأن أكثر اعضاء مجموعة الوسط من اللغويين العرب يعتمدون عليها في دراساتهم النقدية لتراثنا اللغوي. أما النقطة الثانية فانها تهدف إلى اعطاء مثال مقتضب من مقالة عربية حديثة، من أجل ايضاح مشكلة مجموعة الوسط، وتمثيل موقفهم، كما تمت الاشارة الى هذا آنفا.

الا انه قبل أن أخوض في بحث هاتين النقطتين، فاني سوف احاول أن اعرض بصورة سريعة لسمة هامة من سمات النظريات العلمية، بغض النظر عن المجال العلمي لتلك النظريات، أو موضوع بحثها، استنادا إلى نظرية فيلسوف العلم كارل بوبر *(Popper)*.

احدى سمات النظريات العلمية :

ان احدى المقولات الاساسية التي تشتمل عليها نظرية بوبر في طبيعة العلم تنص على وجود فرق جوهري بين النظريات العلمية، من ناحية، والنظريات غير العلمية، أو الميتافيزيقية، من ناحية أخرى. اما الدعامة التي ترتكز عليها هذه المقولة فهي انه بينما يمكن اختبار صحة ما تقول به النظريات العلمية من خلال مواجهتها، إما مباشرة أو بطريق غير مباشرة، بارضية الواقع الطبيعي أو الانساني الذي تشير اليه، أو تحاول وصفه وتعليله، فان هذا لا يمكن تحقيقه في مجال النظريات غير العلمية أو الميتافيزيقية. ان الاهتمام في اختبار صحة نظرية علمية ما، بناء على اسلوب بوبر هذا، لا ينصب على محاولة اثبات صحة هذه النظرية، بل على محاولة اكتشاف خطئها واثباته. فان تم ذلك فان صحة هذه النظرية تكون قد نُفِيَتْ، اما ان لم يتم ذلك فانه لا يجوز القول بثبوت صحة هذه النظرية، نظرا لانه لا يمكن من وجهة النظر المنطقية، استبعاد احتمال اثبات خطئها في المستقبل القريب أو البعيد.

ان هذه المعالجة لطبيعة النظريات العلمية تدعمها الكثير من الادلة العلمية المستقاة من تاريخ تطور العلوم. فعلى سبيل المثال لا الحصر، فانه رغم فشل جميع المحاولات لاثبات خطأ نظرية نيوتن، طوال فترة شيوعها، فقد تَمَّ في النهاية اثبات خطئها على يد اينشتاين في مطلع هذا القرن. ان هذه الواقعة الهامة، في تاريخ تطور العلوم الطبيعية، تشير بكل وضوح الى حقيقة انه لا يجوز القول، من وجهة النظر المنطقية، بصحة نظرية علمية ما انطلاقا من واقع ان كل المحاولات التي تمت لاثبات خطئها قد باءت بالفشل، وعليه، فلا يمكن نفي احتمال ثبوت خطأ هذه النظرية في زمن ما في المستقبل.

ان ما سبق ذكره اعلاه بخصوص طبيعة النظريات العلمية، استنادا الى نظرية بوبر في طبيعة المعرفة العلمية، سواء كانت هذه المعرفة في مجال العلوم الطبيعية أم العلوم الانسانية، يدل على انه لايصح، لأسباب منطقية وتاريخية، اعتبار اية نظرية علمية، مهما بلغت درجة شيوعها، أو ثقتنا بها، كاداة أو وسيلة للحصول على المعرفة العلمية نظرية مسلمة لا يجوز الشك فيها، وحقيقة لا غبار عليها. كما ونستدل مما ورد ذكره اعلاه إلى ان النظريات غير العلمية، أو الميتافيزيقية كما يسميها بوبر، تحتوي على افكار وآراء لا يمكن اختبار صحتها عن طريق محاولة اثبات ما تشير إليه، أو تتحدث عنه، وذلك بمواجهتها بعالم الواقع الطبيعي أو الانساني.

نظرية تشومسكي

تعد نظرية تشومسكي في القواعد التحويلية التوليدية من أكثر النظريات اللغوية المعاصرة أهمية وأعظمها شيوعا. ومن أهم الأمور التي تدعو اليها هذه النظرية هو ضرورة التفريق بين اللغة الانسانية، من جهة، واللغات الانسانية كل على انفراد، كاللغة العربية أو الانجليزية مثلا، من جهة أخرى. اما اللغة الانسانية في رأي أصحاب هذه النظرية فانها تشكل مجموعة اللغويات العمومية *(Universals Linguistic)* التي تُعَرِّف كل لغة انسانية كلغة انسانية. أو بعبارة أخرى انها مجموعة المقومات اللغوية التي تتواجد في كل لغة انسانية مُحَدِّدَة إياها كلغة انسانية، لا، مثلا، كنظام اتصال ذو طبيعة أخرى. أما مفهوم اصحاب هذه النظرية لطبيعة

اللغات الانسانية منفردة فيمكن تمثيله بالمفهوم الذي يتحتم اعطاؤه للغة العربية بناء على نظريتهم هذه. فاللغة العربية، بناء على هذه النظرية، هي مجموعة الجمل التي تنضوى تحت هذه اللغة، والتي يتم توليدها من مجموعة محدودة يسميها تشومسكي بالتراكيب العميقة *(Surface Structures)*، بواسطة استعمال قواعد لغوية مختلفة النوع ومرتبة ترتيبا معينا. ونظرا للاساس النفسي الذي تقوم عليه نظرية تشومسكي فانه لا مناص من القول بان اللغة العربية، بالمفهوم الذي تم اثباته اعلاه، هي ظاهرة نفسية عقلية لها وجودها في دماغ كل من يتحدث بها كلغة أم. لقد عبر كاتز *(Katz)*، وهو احد اتباع تشومسكي، عن هذه النظرة الى طبيعة اللغة الانسانية بصورة واضحة في مقالة له نشرها في المجلد رقم (40) من مجلة **اللغة** *(Language)* الصادرة سنة (1964).

يقول كاتز (ص 133) في هذه المقالة :

«The linguistic description and the procedures of sentence production and recognition must correspond to independent mechanisms in the brain. Componential distinctions between the syntactic, phonological, and semantic components must rest on relevant differences between three neural submechanisms of the mechanism which stores the linguistic description. The rules of each component must have their psychological reality in the input-output operations of the computing machinery of this mechanism. The ordering of rules within a component must, contrary to the claims of Bloomfield and many others, have its psychological reality in those features of the computing machinery which group such input-output operations and make the performance operations in one group a pre-condition for those in another to be performed».

ان ما اريد التركيز عليه بما سيعالجه البحث ادناه هو المكانة العلمية، أو عدمها على وجه أصح، للمفهوم الذي اقترحه تشومسكي وأتباعه بخصوص ماهية اللغة الانسانية وطبيعتها كظاهرة نفسية مركزها الدماغ، معتمدا في ذلك على نظرية بوبر في طبيعة العلم.

من المسلّم به انه لا يمكن أن نختبر، بصورة مباشرة، صحة التركيب البنيوي للغة انسانية ما، كما يكون هذا التركيب بناء على نظرية تشومسكي، نظرا لانه لا تتوافر لدينا الوسائل والأساليب التي يمكننا بواسطتها أن نراقب ما يجري في ادمغة الناطقين بهذه اللغة كلغة أم، اثناء قيامهم بنشاطاتهم اللغوية، دون اتلافها. فمثلا نحن لا نستطيع ان نفتح جماجم اصحاب لغة من اللغات من أجل مراقبة ما يدور في ادمغتهم اثناء نشاطاتهم اللغوية دون ان ندمر أو نتلف هذه الأدمغة التي نود مراقبتها. كما اننا لا نستطيع أن نستعمل اساليب الأشعة القوية، كوسيلة لاختبار صحة تركيب بنيوي مركزه الدماغ، دون اتلاف هذا الدماغ اثناء عمليتنا هذه.

ونتيجة لذلك، فان أصحاب المدرسة التحويلية التوليدية، وغيرهم من اللغويين الذين ينظرون الى اللغات الانسانية كظواهر نفسية، يتّبعون اسلوب النَمْذَجَة *(Modelling)* عند محاولتهم اختبار صحة ما تقول به نظرياتهم. وفحوى هذا الأسلوب هو بناء نموذج لغوي، يرمي الى توليد كل الجمل التي هي جمل نحوية صحيحة في لغة من اللغات الانسانية. فان نجح هذا النموذج في القيام بهذه المهمة ـــ أي في توليد كل الجمل النحوية في اللغة التي هو نموذجا لها ـــ استنتج اصحاب المدرسة التحويلية، ومن شاكلهم من علماء اللغة المعاصرين، بان التركيب اللغوي لنموذجهم يقابل تركيب اللغة الانسانية المعنية، كما هي ظاهرة نفسية بالدماغ. وقد يذهب بعضهم الى ابعد من هذا، فيقولون بتطابق التركيب اللغوي لنموذجهم ان يولد كل الجمل التي هي جملا نحوية صحيحة في اللغة التي يرمي هذا النموذج الى ان يكون نموذجا لها، فان اصحاب المدرسة التحويلية، ومن شاكلهم من علماء اللغة المعاصرين الذين ينظرون الى اللغات الانسانية كظواهر نفسية، يرفضون هذا النموذج باعتباره نموذجا خاطئا.

ونظرا لأن معرفة افراد مجموعة لغوية ما بلغتهم لا يمكن أن تكون متساوية أو متكافئة، اضافة الى ان هناك فرقا بين المعرفة اللغوية عند كل فرد من هؤلاء الأفراد، والتي هي كاملة متكاملة، ونشاطه اللغوي الملىء بالتردد وزلات اللسان وانصاف الجمل، فان تشومسكي وأنصاره يقترحون مفهوما اسموه «المتحدث المثالي».

والمفروض أن هذا المتحدث المثالي يعرف لغته معرفة تامة كاملة، وهو ليس بعرضة للتردد، وزلات اللسان، وانتاج انصاف الجمل، مما نلاحظه في النشاط اللغوي للمتحدث العادي. ومعنى هذا كله، هو ان محاولة اكتشاف مقدرة النموذج اللغوي الذي يقترحه عالم اللغة على توليد كل الجمل النحوية الصحيحة في لغة ما، ولا شيء غيرها، تتم عن طريق مواجهة هذه الجمل بالمعرفة اللغوية التي يمتلكها «المتحدث المثالي» بهذه اللغة. فان اتفقت جميعها مع معرفته اللغوية، قيل بان التركيب اللغوي الذي يتضمنه النموذج اللغوي لهذه اللغة يقابل، أو لعله يصور، التركيب البنيوي الذي يمتلكه المتحدث المثالي بهذه اللغة في دماغه. أما اذا كانت النتيجة معاكسة لذلك، فان هذا كاف للحكم بخطأ هذا النموذج، نظرا لعدم قدرته على مقابلة أو تصوير التركيب البنيوي الذي يُكَوِّن معرفة المتحدث المثالي اللغوية.

ان ما يهمنا هنا هو المرتبة العلمية للاستدلال القائل بان التركيب البنيوي للنموذج اللغوي يقابل أو يصور التركيب البنيوي

للغة التي يرمي هذا النموذج الى ان يكون نموذجا لها، اذا كانت الجمل التي يستطيع أن يولدها هذا النموذج تشكل مجموعة الجمل النحوية الصحيحة في اللغة المعنية، استنادا الى المعرفة اللغوية عند المتحدث المثالي، ولا شيء غيرها. ان هذا الاستدلال يشكل احد الأركان الأساسية التي ترتكز عليها نظرية تشومسكي اللغوية. فان نجحت محاولة اثبات ان هذا الركن من أركان نظرية تشومسكي لا يقوم على ارضية علمية ومنطقية يمكن الركون اليها، فاننا نكون قد قدمنا برهانا قاطعا على أنها نظرية ضعيفة الأساس في هذا الجانب من جوانبها على الأقل، وبالتالي فانه لايجوز اعتبارها مسلمة وحقيقة لاريب فيها في محاولة معالجة وتقييم تراثنا اللغوي من وجهة نظر لغوية حديثة. ومن اجل اثبات ان هذا الاستدلال لا يقوم على أرضية علمية محكمة، من وجهة النظر التي يدعو اليها بوبر لطبيعة العلم، فاني سوف اركز على مفهوم «المتحدث المثالي» الذي تُعْتَبَرُ معرفته اللغوية المرجع النهائي في الحكم على صحة أو خطا نموذج لغوي ما. فهذا المتحدث ليس متحدثا بالمعنى العادي أو التقليدي لهذه الكلمة، بل هو **مفهوم لغوي بحت من صنع اللغوي نفسه.** وانطلاقا من هذا فإن المتحدث المثالي لا يمكنه امتلاك دماغ يَخْتَزِنُ فيه معرفته اللغوية، كما لا يمكنه اكتساب معرفة لغوية مستقلة عن المعرفة التي يَفْتَرِضُ اللغوي انه يتملكها. وبالتالي فليس ممكنا اختبار صحة النموذج اللغوي الذي يَقْتَرِحه عالم اللغة بالشكل الذي تم شرحه في الجزء الثاني من هذه المقالة. وانطلاقا من ذلك فلا يمكن الوصول الى صحة الاستدلال الذي نحن بصدد معالجته ؛ ولذا فان هذا الاستدلال لا أرضية علمية له من وجهة نظر بوبر لطبيعة العلم والمعرفة العلمية. كما ان هذا الاستدلال لا يقوم على أرضية منطقية صحيحة ومحكمة. فالقول بان التركيب البنيوي الذي يتضمنه النموذج اللغوي يقابل أو يصور التركيب البنيوي للغة التي يرمي هذ النموذج الى ان يكون نموذجا لها، اذا استطاع هذا النموذج ان يولد كل الجمل التي هي جمل صحيحة نحويا في هذه اللغة، ولا شيء غيرها، لا يمكن قبوله من وجهة نظر علم المنطق لانه يناقض قاعدة منطقية مؤداها عدم جواز القول بصحة السابق من صحة توابعه. ان تبرير هذه القاعدة نابع من حقيقة انه يجوز من وجهة نظر علم المنطق القيام باستقراء مقولات صحيحة من مقدمات خاطئة، ونظرا لذلك فانه لا يجوز ان نستدل على صحة المقدمات من صحة المقولات التي تؤدي اليها هذه المقولات بطريقة منطقية. ففي المثال التالي :

كل العرب فنلنديين
كل الفنلنديين يتكلمون اللغة العربية
كل العرب يتكلمون اللغة العربية

تم استقراء المقولة الصحيحة «كل العرب يتكلمون اللغة العربية» من مقدمات خاطئة في ارض الواقع. وبالتالي فانه يجوز القول بصحة تلك المقدمات لأنها لا تؤدي الى مقولة، أو نتيجة صحيحة واقعيا. وبناء على ذلك فيمكننا القول بان الاستدلال على صحة التركيب البنيوي للنموذج اللغوي استنادا الى صحة نتائجه، أي الجمل التي يولدها، لا يقوم على أرضية منطقية محكمة، بل هو في الحقيقة، يُخالف احدى قواعد التفكير المنطقي، وبالتالي التفكير العلمي الذي يشكل علم المنطق احد دعائمه الاساسية.

يتضح مما تم ذكره اعلاه ان المفهوم الذي تتقدم به نظرية تشومسكي لطبيعة وماهية اللغات الانسانية لا يقوم على اساس علمي ومنطقي مقبول. واذا ما توخينا الدقة في التعبير، فان هذا المفهوم ليس الا مفهوما ميتافيزيقيا، بالمعنى الذي يحدده بوبر لهذا المصطلح. غير ان هذا لا يعني بان نظرية تشومسكي هي باكملها نظرية ميتافيزيقية. فهذه النظرية تحتوي على بعض العناصر التي يمكن اختبار صحتها بالطريقة التي يدعو اليها بوبر. كما ان هذه النظرية قد اثارت مسائل جوهرية تتعلق بطبيعة اللغة الانسانية لم تُثِرْها من قبل نظريات لغوية حديثة سبقتها. الا انه رغم ذلك، واعتمادا على الاستنتاجات التي تَوَصَّلْتُ اليها اعلاه، فانه لابد من الاعتراف بان نظرية تشومسكي تبدو ضعيفة الاصول اذا ما نظرنا اليها من وجهة نظر فلسفة العلم، بما في ذلك علم المنطق. ولذا فانه ليس من الحكمة اعتبار هذه النظرية حقيقة مسلما بها عند معالجتنا لتراثنا اللغوي العربي.

مثال مقتضب

ولبيان ضرورة الوقوف وقفة فاحصة مدققة من الدراسات اللغوية الحديثة، عند بحثنا للتراث اللغوي العربي من وجهة نظر هذه الدراسات، فاني سوف اركز بصورة مقتضبة على مفهوم **الصرفيم** *(Morpheme)*، كما تم شرح هذا المفهوم في مقالة الدكتور عبد الرحمن ايوب «المفهومات الأساسية للتحليل اللغوي عند العرب»، التي تم نشرها في الجزء الأول من المجلد السادس عشر من مجلة **اللسان العربي** سنة 1978.

يتبنى المؤلف في هذه المقالة احد اشهر التعريفات لهذا المفهوم في الدراسات اللغوية الحديثة، الا وهو أن الصرفيم يشكل «أقل مجموعة من الوحدات الصوتية (التي) تؤدي معنى» (ص 18). ومثل اصحاب هذا التعريف — بلومفيلد *(Bloomfied)* واتباعه على وجه الخصوص — يقع المؤلف في خطأين اثنين. **اولهما** قوله في سياق آخر بأن «الصرفيم يتكون من صوتيمات» *(Phonemes)*. فهذا التحديد لمفهوم الصرفيم يعارض المفهوم الأول ويناقضه : فكيف يمكن لشيء يؤدي معنى أن يتكون من

صوتيمات لا معنى لها ؟ وبعبارة أخرى، اذا كان الصرفيم هو حقا أصغر الوحدات النحوية التي تؤدى معنى، فكيف يكون هذا الصرفيم وحدة لغوية تتكون من صوتيمات لا معنى لها على الاطلاق ؟

اما الخطأ الثاني فانه يتعلق بالخلط بين مفهومي «الكلمة» و«الصرفيم» كوحدات نحوية مستقلة يجب التفريق بينها دوما وباستمرار نظرا لانها تشكل اللبنات الأساسية لأجزاء مستقلة من التركيب النحوي لأية لغة من اللغات. فالكلمة تعتبر في نظر اغلبية علماء اللغة المحدثين الوحدة الأساسية في **النحو** *(Syntax)*، بالمفهوم الضيق لهذا المصطلح، أما الصرفيم فانه يعتبر الوحدة الأساسية في **الصرف** *(Morphology)*. أما الخلط الذي اشرت اليه آنفا فانه يبدو واضحا من قول المؤلف (ص 20) «ان بعض الكلمات يمكن ان تكون اساسا لتوليد كلمات أخرى. وذلك باضافة صرفيمات ذات معنى إلى الأساس، وقد تكون الصرفيمات المضافة بدورها كلمات تصلح اساسا ويمكن استعمالها مستقلة وقد لا تكون». فالقول بان بعض الصرفيمات المضافة الى الأساس لتوليد كلمات أخرى يمكن أن تكون «بدورها كلمات» يؤدي الى الخلط بين الصرفيم والكلمة، نظرا لأن هذا يجعل من الكلمات المضافة الى الاساس لتوليد كلمات أخرى نوعا من أنواع الصرفيم.

وفي تحليله للكلمة الانجليزية *(blackbird)* ــ اسم طائر «الشحرور» بالعربية ــ على أنها مكونة من الكلمتين *(black)* و*(bird)*، بالمعنى العادي لهاتين الكلمتين، يقع المؤلف في نفس التناقض الذي وقع، ويقع، فيه كثير من اللغويين المحدثين الذين يتبنون نظرة مماثلة الى هذه الكلمة وغيرها من الكلمات المشابهة، مثل *(ladybird)* ــ اسم الحشرة «أم عمرو» بالعربية.

ومصدر هذا التناقض هو أنها إذا كانت كلمة *(blackbird)* هي حقا كلمة مركبة من كلمتي *(black)* و *(bird)*، بالمفهوم العام لمصطلح الكلمة كوحدة لغوية ذات معنى مستقل بها، فانه يجب أن يكون ممكنا، من الناحيتين النظرية والوصفية، ان نستدل على معنى هذه الكلمة من معنى كل من كلمتي *(black)* و*(bird)* اللتين تكوناها بما في ذلك، بطبيعة الحال الرابطة النحوية بينهما.

ولما كان هذا ليس ممكنا، نظرا لأن *(black)* هنا لا تعني «اسود» بالضرورة، انطلاقا من واقع ان اناث هذا الجنس من الطير هي بنية اللون، وان بعض انواع هذا الجنس من الطير هي بيضاء اللون، فانه يجب ان تُعْتَبَرَ هذه الكلمة، من وجهة نظر اللغويات غير التاريخية، كلمة بسيطة، مركبة. كما انه لا يجوز بناء على ذلك ان نَعْتَبِر *(black)* في كلمة *(blackbird)* «كلمة» بالمفهوم السائد لهذا المصطلح اللغوي، اي كوحدة لغوية ذات معنى مستقل خاص بها. فالشبه بين *(black)* في كلمة *(blackbird)* وكلمة *(black)* في *(black bird)* ــ أي طائر اسود اللون بغض النظر عن الفصيلة التي ينتمي اليها ــ هو شبه يعزى الى الشكل فقط، سواء كان هذا الشكل لفظيا أو كتابيا.

خاتمة :

لقد حاولت في ما سبق من هذه المقالة ان أقدم بعض الحجج والأدلة لدعم الرأي القائل بان الدراسات اللغوية الحديثة لا تصلح كأداة جاهزة وفورية لمعالجة ومحاكمة تراثنا اللغوي العربي. فالأغلبية العظمى من هذه الدراسات ما زالت تغفل أهمية النظر إلى اصولها العلمية والمنطقية الى حد يجعلها غير جديرة بان يطلق عليها اسم «علم». فمصطلح «علم اللغة» هو في رأيي أكثر انطباقا على المنزلة التي ترنو إليها الدراسات اللغوية الحديثة منه على حال هذه الدراسات كما هي عليه الآن. وتبعا لذلك، فان استعمالنا لمصطلح «علم اللغة» في الصفحات السابقة، للاشارة إلى الدراسات اللغوية الحديثة، منبعه العرف والعادة، لا محاولة الاشارة الى خاصية العلم في هذه الدراسات.

ولعل اهمال الرجوع الى علم المنطق في الدراسات اللغوية الحديثة ما هو الّا نتيجة لردة فعل ضد نزعة لغوية قديمة كانت تهدف الى اخضاع اللغات الانسانية لدراسات منطقية لا لغوية. ان هذا يفسر سببا من اسباب اصرار اللغويين النظريين المحدثين في عصرنا هذا على ضرورة وأهمية دراسة اللغات الانسانية من وجهة نظر لغوية بحتة. الا أن هذا الاصرار يجب ان لا يُعْتَبَر مدعاة لحظر الرجوع الى علم المنطق في بناء الدراسات اللغوية. فدور المنطق هنا يختلف اختلافا جوهريا عن دوره في الدراسات اللغوية القديمة. ان دوره هنا لا يتعدى كونه اداة نستخدمها في الوصول الى دراسات لغوية لا يشوبها التناقض، أو كوسيلة نستطيع بواسطتها ان نكشف اي تناقض قد يكون كامنا في دراساتنا هذه.

المراجع

1. *Chomsky, N : **Syntactic Structures**, Juana Linguarum, N°IV, The Hague, 1957*
2. *------ : **Aspects of the Theory of Syntax**, Cambridge, Mass, 1965*
3. *Katz, J.J. : «Mentalism in Linguistics», **Language**, Vol. 40, 1964*
4. *Mulder, J.W.F. and Hervey, S.G.J. : **The Strategy of Linguistics**, Scottish Academic Press, Edinburgh, 1980*
5. *Popper, K. : **Conjectures and Refutations**, London : Routledge and Keegan Paul, 1963*
6. *------ : **The Logic of Scientific Discovery**, Hutchinson (4th ed.), 1965*
7. ايوب، عبد الرحمن : «المفهومات الأساسية للتحليل اللغوي عند العرب» **اللسان العربي**، مجلد 16، 1978